الطفلة

من الأدب النرويجي

قصة كورا ساندل

ترجمة : حسين القباني

ولدت « كورا ساندل » في شمال النرويج وعاشت معظم حياتها في السويد . وان كتاباتها لتنم عن قوة ملاحظة وبراعة تصوير للشخصيات ، والسعي الدائب لمعرفة الحقيقة ، والشوق الدائم الى الحرية وتطوير الذات .

كان من الممكن ان يكون المكان ركنا في الجنة ، ولكنه بدلا من هذا كان شيئا مختلفا تماما فمن كان يظن انه على هذا النحو ؟ ففي ركن من المنكاكانت دمية تربو عيناها الزجاجيتان اللامعتان السوداوان الى الامام مباشرة .

وعلى قاعدة النافذة كانت ثمة نباتات مزهرة - نبات الفوشيا والجرومية في دروه الازدهار وكانت الستائر فاتحة اللون ، من نسيج رقيق ، ترفرف عبر اجنحة نسائم الصيف - ونافذتان مفتوحتان زجاجهما لامع صاف ، والكتب ملقاة على نصد ، وعيرها على أرفف حول الغرفة .. كتب كثيرة عن موضوعات مختلفة .. عن الحياة ، والموت ، والحب .. شعرا ونثرا . وعلى الأرضية قطعة وشي رقيقة ، نسائية ، من المخرمات والحرير الرقيق ، الناعم كشعرة طفل .

والبيانو مفتوح .. وعلى نصد الموسيقى ، كان ثمة نوتات من الموسيقى المختارة .. قديمة وحديثة .. لشوبان وسكرايابان .

ان الطفلة تدخل الغرفة ، وتتمخرق الارضية ، وتتناول الدمية بين ذراعيها وتلاعبها وتبحث بين الكتب الموضوعة على النصد عن كتاب فيه صور ، وتضغط على أحد أوتار البيانو ، طفلة متعثمة ، صحية البدن ، عارية الذراعين والساقين ، ملون الوجه بالشمس والهواء ، عليها آثار التمرغ على الرمل والعشب ، والخوض في مياه الشاطئ ، صابغة فطائر من الطين ، أو سلسلة من الخرز البرى ناعمة يأكل الشيكولاتة .

عيناها تنمان عن سعادة الطفولة . واسعتان حاليتان من الهموم ، وكأنهما لا تدريان بما حولها .

وهنا ايضا يعيش بعض الكبار ولكنهم يعرفون اين يعيشون ، فالسيدة تدخل وتخرج وتروى الازهار ، وترتب الغرفة وتكنسها ، ثم تجلس أحيانا الى كتاب ، او الى قطعة الوشى الملقاة لتصنع عروة أو انتين ، لا اكثر ، فان هناك بعض قطع الوشى لا يتم صنعها ابدا .. وهذه احداها وكذلك هناك كتب تلقى عليها نظرات وحسب ، ولا تقرأ قط انها تبقى هكذا خرساء ، تعلق بصمت بين الحين والآخر ، وتلقى جانبا .

انها سيدة ملول .. لاتكاد تجلس حتى تقف مرة اخرى ، باحثة عن شىء تفعله هنا أو هناك ، فهى تلمع زجاج نافذة ، لامعا فعلا ، وتنظف سطحا مصقولا بقطعة التنظيف ، وتشتغل نفسها باعمال كثيرة لا داعى لها وهى فى بعض الاحيان تهتم بالغناء ، ولكنها ايضا تمسح دمعة تطفو فجاة فى ركن عينيها قبل أن تتحدر على وجنتها - وهى - أى السيدة - نحيلة القوام ، سوداء الشعر والعينين .

وهى أحيانا تدخل الغرفة ويداها ملكتان ، وعلى وجهها سمات التشوق وفجاة تمسح يديها فى مئزرها وتندفع الى البيانو ، وتنطلق الانغام تصور واقع الحياة .. نغمتان ترتفعان فيما يشبه المناوشة ، احداهما فيها تهكم وازدراء ، والاخرى فيها تشوق واحتمال .. ثم تهدىء وتلتقيان اخيرا فى صدام عنيف يمتزج فيه الالم باللذة .

وفجاة تتحول النغمات الى اصوات ناشدة تؤلم السمع . ان السيدة تلقى بيديها على الاوتار فترسل هذه ما يشبه العويل المرتفع ، وتنحنى السيدة وتلمس براسها الاوتار ، فتعول مرة اخرى .. وتتساقط الدموع بين الاصابع .

ولكن في مقدورها ايضا أن تعزف مقطوعة موسيقية ليلية ، برقة بالغة وكانما الليل اسدل ستائره ، وامس احدهم في حاجة الى التهدئة للنوم ·· ولكن هذا ايضا يرسل الى حديها بعض الدموع

وهي قد تهبض وترقص القالس «في وسط الغرفة » ، وقد تنتقل أيضا من جانب في الغرفة الى جانب آخر بخطوات واسعة حافلة ، كخطوات حيـــوان في قفص · وفي النهاية كان منديلها يرتفع دائما الى عينيها ·

انها تسمع الطفلة مقبلة ·· فتمسح وجهها بسرعة ، وتغير السمات المرتسمة عليه كانها ممثلة مقتدرة · وتاتي الطفلة صوائبة ، وتترك الباب مفتوحا ،وتتعثر وتسقط بين ذراعي أمها هاتفـــة او ضاحكة كما يفعل الاطفال · او ربمـــا تحضر باقة مكونة من مختلف الزهـــور البرية ، بعضها قصير السوق ، وبعضها طويل لا يتناسب مع الزهريات التي تتلقـــاها على كل حال ·· انظري ·· انظري اليها ·· الا تبدو جميلة ؟ ·

وفي أحيان أخرى تصيب الطفـــلة نفسها فترفع اصبعا محدوشا أو تكشف عن ركبة صغيرة مستديرة عليهـــا آثار رمال ودماء الخدش · انهـا تتضور باكية وتنادي أمها · انها في حاجة الى المساعدة والمواساة ، وما أسهل مواساة الطفلة وسرعان ما تضـــحك مرة أخرى ، ثم تجلس على المتكا والدمية بين ذراعيهـا والصمادة حول الخدش ، تمتص شـيئا لذيذا او تتفرج بكتاب مصور وتتحدث الام اليها ، وتضحك معها ، وتشغلها ، وتأخذها بين ذراعيها المرة بعد الاخرى وتقبلها · وكانما في اعماقهاتئن من لوم النفس ، أو الخوف من شيء وتترنم بفقرات من بعض الاغنيـــات ، وتسرد حكاية خرافية « عن يوم من ذات الايام كانت هناك امرأة صغيرة رقيقة قصيرة تعيش في كوخ صغير رقيق قصير ·

وتنصت الطفلة بعينين لامعتين ، وفي ترقب بالغ ، ولكن الام تضطرب في سياق الحكاية وتعجز عن اتمامها ·· وهنا تدفع الطفلة عن حجرها في توتر عصبي وانشغال فكري ، وتقول لها «والآن» تعالي الى الخارج لتلعبي ، فانا لا نستطيع ان نبقى هنا طيلة اليوم »·

وتمضي الطفلة فورا ·· فهذا مايحدث عادة ·· وقد حـــدث قبل ذلك مرات عديدة ·

وعند المساء تسمع الام صرير بوابة الحديقة ، ثم صوت خطوات رجل عـلى الممر المفروش بالحصى ·· وفجاة يمس وجهها القلق ، جامدا مرسوم الشقاء ·

وتتحرك بسرعة في جوانب الغرفة، فتغلق البيانو ، وتخفي النوت الموسيقية وتقف مرهفة والوشي بين يديها لاتدري ماذا تفعل به ، ثم تدعه أخـــيرا على المقعد ·

وتخرج بعد ذلك من الغرفة

ويدخل الزوج ·

انه من النوع الذي يسميه الانسان المهذب المستقيم ، الموحى بالثقة ،الكريم المعتد ، في ذروة الرجولة ·· وهـو أيضا بلا شـــك ، لطيف رقيق المعشر يمكنه أن يمرض السكينة والهدوء في بيته ، ولكنه لا يفعل ·· وهـو من ثم ينظر حوله في ارتياب ، ويمض شفتيه ويمسح لنفسه ·

وكانت الطفلةقد دخلت معه . وهي تقف الآن معتمدة على ركبته ، مهمهمة بمغامرات اليوم لقد رأت عصفورا .. عصفورا صغيرا جميلا .. ورأت حديقا .. حديقا صغيرا جميلا .. وجمعت باقة أزهار جميلة لأمها ، هناك .

نعم - أليست جميلة ؟

وباعد الأب طفلته الى حجره ، ولكن تنطلق الى مكان آخر .

وانطلقت الطفلة بالانتباه اليها ، فتلتقط كتابا مصورا وتشير الى ما فيه من صور . ويقول الاب بلهجة آلية ، نعم ما أجملها قطيطة . ما أجمله بغاء صغير » .

ان عينيه على الباب .. يرهف السمع وفجأة يدفع الطفلة عن حجره ، ويلتقط التليفون ويدير القرص بسرعة على رقم معين ، واذا الام تدخل الغرفة وهو في منتصف المحادثة .

انه لا يراها ولا يسمعها ، وانما يستمر في الضحك والحديث الودي كما يفعل الرجل المشغول بأصدقائه ومسراته - بل انه ليبدو وكأنه لايذكرها حتى بعد ان وضع السماع واستمر في مكانه يبحث عن مزيد من الارقام في سجل الارقام التليفونية ، وهو في مزيد من الانشغال الذهني

وتقول هي في حدة وتجلس

- طاب مساؤك .

- أوه - أهذا انت ؟ طاب مساؤك .

- حسنا .

ويتم صوتها عن اللهفة ، ولكنه لا يخلو من لهجة الطفل المترقب شيئا ، ويجيب أملها حين يهز كتفيه ويقول

- حسنا .. لا شيء يستحق الذكر .

وتجلس في مكانها وكأنها كانت تنتظر ان تسمع شيئا غريبا .انها دائما تنتظر من هذا الزوج أن يقول شيئا لا يقوله ابدا - لقد ظلت طيلة حياتها الزوجية تنتظر وهي لاتعرف على وجه التحديد ماذا تنتظر - وكل ما تعرفه ان أملها الليلة قد خاب أيضا .

وعاد يلوح بيديه الخاليتين في عموض

- لا شيء ..

لقد كان يومه تماما مثل كل أيامه الاخرى ، لم يحدث شيء . انه يعود الى البيت من نفس الطريق الذي عاد منه بالامس ، وما قبل الامس . وهو ليس بالرجل الواسع الخيال الذي يملأ ذهنه كل يوم بالمغامرات - وهو ايضا ليس محلوقا متقلب المزاج ، يحتد احيانا او يهدأ حينا أو ينفجر فجأة . انه ، غريزيا يقوم بقدر الامكان بدور الرجل العصبي النفس الذي لا يستطيع الانسان العادي أن يسير عوره ولكن هذا الدور لا يناسبه ، ولا هو بارع في أدائه ، ولا هو يحب القيام به . انه يحب بطبيعته ان يكون صريحا واضحا .

على أن هذا الدور الذي يقوم به لا يخفف التوتر المزمن - ان زوجته لا تزال تجلس في مكانها ، تشعر بلا سبب واضح ، بالضيق والتحدي ، ان احساسها بخيبة الامل .. هذا الاحساس الذي ليس له ما يبرره ،يجثم على جو الغرفة - كأنه شكوى صامتة، تريد في نفسه المزيد من التحطم أكثر مما تطيق طبيعته- ترى ماذا تريد نحق الشيطان ؟ .

قال وهو يلوي شفتيه تهكما

- حسنا .. وماذا عنك ؟ .

وتجيب هي بنفس التهكم

ـ بخير .. شكرا .

ويسبب لهفته الى ازالة الشعور الثقيل المخيم على الجو ، اوقع نفسه في مأزق . انه يلتقط قطعة الوشى ويتناولها بخشونة ويقول :

ـ ان على الانسان أن يكون سعيدة لكي يجد الصبر والوقت لصنع شيء كهذا .

ـ الوقت ؟ يا للسماء .. ان هذا الوشى ملقى هنا منذ أسابيع . فلو كان لدى فقط الوقت اللازم .

وتمسك عن تتمة الحديث في ضيق، وسقطت هو في حواس الحرفة .. الى البيانو . انه معلق . وليس هناك نوت موسيقية في سمت النظر . لقد وجد نفسه يواجه الجدار المرتفع الذي لاسبيل الى اجتيازه .. جدار الاستغراق في شئون البيت .. هذه الشئون التي تستلزم تضحيات لا يدركها العقل . وهكذا وجد نفسه في حيرة برمة .

ولكنه يتمالك نفسه ويعود للحديث عن قطعة الوشى باعتبارها نقطة البدء في حديث جديد .

ـ لا اظن انى رأيت هذه من قبل .

وتجيب وهي تنهض :

ـ ان هناك شيئا أو شيئين لاتراهما .. لقد حان وقت الاكل .

وفي نفس الوقت تنفجر بضحكة عالية .. عالية جدا .. تندم عن الاحتقار .

ويشير برأسه في عتاب الى الطفلة التي تنظر الى أمها في دهشة :

ـ فكري في هذه .

ـ انني لا افكر في شيء آخر .. اذا فكرت .

ـ اذا فكرت ؟ .

ـ أوه .

ويأخذ الطفلة بيدها ، ويغادر الغرفة قائلة :

ـ هلم .. هلم نغسل نحن الاثنين ايدينا .

وكان الطعام ، مثل كل يوم شهيا بيتيا ، مدهشا . سمك مشوى ، وبطاطس جديدة وبيرة ، وسلاطة وحلوى فلا شك ان مذاقه جيد .

واستمتع هو بالطعام . ورأى ان الحديث قد يؤدي الى هدنة بينهما .

ومن ثم يقول :

ـ انه طعام لذيذ .

وترد هي ببرود :

ـ أحقا ؟ انني سعيدة بهذا .

ويأخذ الانسان بعد ذلك في الحديث الى الطفلة .. الحديث الآلي الذي يديره الكبار عادة مع الصغار .

ـ ماذا كنت تفعلين اليوم ؟

ـ بيدك اليمنى يا حبيبتي .

ـ هل كنت تلعبين مع الاطفال الآخرين ؟ .

ـ أوه .. احترسي .. احترسي .. انظري كيف اسقطت الطعام في ثوب أمك ، يجب ألا تمسكي الملعقة هكذا .. وانما هكذا .

ـ وأفراخ دجاجة الجيران ، كيف حالها ؟ .

ـ لا يجب ان تأكل البطاطس فقط .. كل من السمك ايضا .

وتجيب الطفلة يمينا ويسارا وهي سعيدة بكونها مركز كل هذا الانتباه انها لاتعرف قط انها واقفة على ارض خطرة .. لا ترى الهاويات الواسعة امامها .

لقد اختطفت قطة أحد الافراخ .

وراسب [illegible] الام على فرخ اخر بلا وعي ، المسكينة ، وكسرت ساقه مما ادى الى ذبحه . كان لابد من ذبح الكتكوت الصغير الجميل . ولكنه الآن مدفون وفوق قبره صليب . والسمك لا يكون له مذاق جميل عندما لا يشعر الانسان بالجوع .

وتتمثل الطفلة في مقعدها وترفض ان تاكل أي مزيد من السمك . ويستمر الوالدان في حديثهما معها .

ـ حسنا .. دعي السمك اذن يا حبيبتي .

ـ بل كليه الآن .

ـ ربما كان نصيبك كبيرا جدا .. ربما تجدين انك لا تستطيعين أكل هذا كله .

ـ كفى ثرثرة يا ست . كلي سمكك والا فلن تذوقي شيئا من الحلوى .

وتعول الطفلة انها تستطيع أن تاكل الحلوى . ولكن السمك لا . وتتراجع في مقعدها وتبدأ في ضرب اسنانها بالملعقة انها لا تجلس الى المائدة كما ينبغي . ولسوف تعدها انها دون حلوى .

ولكن الوالد يحصر الحلوى بنفسه من الحرارة الحامية . ويثر عليها السكر ويقدمها للطفلة قائلا

ـ لا داعي لكثرة الحديث في هذا الموضوع . يجب الا نطلب منها المستحيل في مثل هذه الحرارة الصيفية . وعلينا ان نتجاوز عن بعض الاشياء .

حسنا . لقد تصرف للمرة الاولى باعتباره رب البيت . وقد استطاع أيضا أن يصنع حديثه معجبين . وان هذا ليسره .

وتبدأ الطفلة في تناول الحلوى . ولكنها تتمثل بنظراتها من وجه الى آخر في اضطراب وخجل . لقد بدأ اول

[illegible] ذراك [illegible] ان [illegible] ليست [illegible] ما بها

ولا ينطق الوالدان بكلمة أخرى .

وحيم الظلام . فالسلام الصيف الساكن ، واطيافه في السماء صافية كالزجاج ، ولكنه في الوقت نفسه يرداد كثافة . وتأخذ النجوم ، الواحدة بعد الاخرى في الظهور وتشيع في الجو رائحة الحشائش والازهار . وينطلق من الاعشاب في مكان ما صرير جندب لا يتعب وان المطر ليبدو أكثر من المعتاد ، كقطعة من الفردوس .

وفي غرفة البيانو يضاء مصباح السقف ، ويصطدم فراشات الليل برجاج النوافذ المغلقة . ولكن بعضها يندفع الى داخل الغرفة مفتونا بالضوء من النوافذ المفتوحة ثم يضل طريقه فيها فيستمر في التحويم حول ظلة المصباح . فيبدو وراءها كأنه ظلال صغيرة عاجزة حمقاء .

وانه لجالس هناك .

انه يصغي الصغيرة جالسا ويشرع في مراقبة فراشات الليل . ان محاولة تجنبها ضرب من الصمت . انك لاتستطيع الا أن تتركها وشانها حتى يرحمها الموت . انه ليعرف مشاعرها . فقد طار هو نفسه ذات مرة الى الضوء وشعر بالقرق الهائل بين وجود الانسان داخل الضوء ، وبين نظرته اليه من الخارج . ان الانسان يظن أنه وحده الحصن الدافيء والصدر الذي يريح عليه رأسه ، والذي يجد فيه السكينة والراحة ، ولكنه بدلا من هذا يجد صدرا متحديا دائما ، متقلب المزاج ، لا يفهم الحقائق . موسيقى ؟ ليس هناك نوتة واحدة ، وان البيانو ليبقى في مكانه صامتا ، يركز للشكوى منه ،

انه اذا لم يشعر بالشوق الشديد الى وجودها معه .. ام طفلته ، فلابد لهان يرحل الى الابد .

وسمع في الحديقة وقع اقدام .. انها هناك تتحول .. انها تسير وتسير والحصى ينز تحت قدميها ، وهي بين الحين والآخر تتوقف ، وعندئذ يشعر السكون باشياء تركت بلا حديث .. اشياء لا يستطيع حتى ان يخمنهـا ، ومن ثم تجعله يتململ في مقعده .

وهي ايضا ترى فراشـات الليل ، وهي ايضا تفكر في جاذبية الضـوء . لقد طارت هي نفسها الى شيء اعتقدت انه سيبقى الى الابد مثيرا .. ممتعا .

انها تمضي الى هناك مفعمـة النفس بالشوق الى معاني جديدة .. دائمـا جديدة تدور كلها حول شخص واحد

حول الشوق الدائم الى شـخص واحد .. اب طفلتها انها ممزقة من فرط الشوق الى ذلك الرجل الغريب الذي تعتقد انه جـالس الآن في غرفة البيانو يقرأ صحيفته في هدوء كامل .

ان الطفلة نائمة في مهدها الصـغير الابيض .. لقد بقصت عنها الغطاء بسبب الحر .. وبقيت راقدة باطرافها الحمراء العارية ووجهها الشبيه بالزهرة . ان الطفلة منطلقة بعيدا في حلم .. تسيح حقة ذلك الالم الجديد الغامض الذي حامرها لمدة لحظة واحدة . انها لاتعرف ان هذا الالم هو الرباط الحي الذي يشد اللحم والدم والاعصاب ويربط معـا اشياء غير متلائمين .. ولهـذا السبب سوف تتعلب كثيرا .. عنـدما يحين الوقت .